إصدار خاص

لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ

حراس الشريعة | العدد الثاني - جمادى الآخرة ١٤٣٤



محمد عبد الواحد

لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ

بقلم
محمد عبد الواحد
الأزهري الحنبلي

إصدار خاص
مجلة حراس الشريعة
العدد الثاني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن من الأمور المستقرة في شريعة الله جل وعلا أن الله سبحانه أخذ الميثاق على أهل العلم أن **يبينوا الحق للناس وأن لا يكتموه وأن لا يلبسوا الحق بالباطل**، وأحال الله تعالى العامةَ على أهل العلم ليسألوهم عن شرع الله، فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فجعل العلماء هم الواسطةَ بين الله وخلقه في البيان والتبليغ.

فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بين الله وخلقه في البيان والتبليغ والتعريف بالله وبمراده ومحابه ومراضيه ومساخطه، ولذلك أمره الله بالبيان التام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] =فكذلك ورثته من أهل العلم يجب أن يبينوا بيانًا واضحًا شافيًا لا لبس فيه ولا

كتمان ولا غموض؛ إذ لو كتم هؤلاء **أو أبهموا** = لم يكن سبيل لعموم المكلفين أن يتبينوا مراد الله ورسوله في معظم التكاليف.

ولهذا قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾[آل عمران: ١٨٧]

وكان الحسن يفسر قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ فيقول: "لتتكلمُن بالحق، ولتصدِّقُنه بالعمل".

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩] قال ابن جرير رحمه الله: "يعني تعالى ذكرُه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزلهُ الله من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته وأمر دينِه أنه الحق –من بعد ما بيَّنه الله لهم في كتبهم– يلعنهم بكتمانهم ذلك، وتركهم تبيينه للناس".

فالواجب على أهل العلم البلاغُ المبين، **وكل كلام مجمل لا بيان فيه =فهو من الكتمان المحرم** المتوعد عليه بالعذاب واللعنة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٤٢] قال ابن جرير رحمه الله: "يعني بقوله: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ﴾ لا تخلطوا، واللَّبْس هو: الخلط، يقال منه: لَبَست عليه هذا الأمر ألبِسُه لبسًا: إذا خلطته عليه".

وإن خاصة أهل السنة بيان الحق بالعبارات الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض ولا اشتراك يوقع السامع في الالتباس والخلط، وخاصة أهل البدع استعمال الألفاظ المشتركة والمجملة والغامضة ليزينوا بها بدعتهم وليَلبسوا على العامة دينهم.

قال الإمام أحمد رحمه الله في وصف أهل الحق وأهل البدع والأهواء: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم؛ يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى؛ فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما

أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب مجتمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، **يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم،** فنعوذ بالله من فتن المضلين".

فبيَّن رحمه الله أن أهل البدع والأهواء يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم.

وهذا الكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس هو الذي يتضمن الألفاظ المتشابهة المجملة التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة، وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس لكن بمعانٍ أُخَر غير المعاني التي قصدوها هم بها، فيقصدون هم بها معاني أخر فيحصل الاشتباه والإجمال!

ومن الأصول الكلية أن يُعلم أن الألفاظ نوعان:

١/ نوع جاء به الكتاب والسنة؛ فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجَب ذلك، فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله، فاللفظ الذي أثبته الله ورسوله أو نفاه الله ورسوله =حق؛ فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني.

٢/ والنوع الثاني: الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها؛ فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده؛ فإن أراد بها معنى يوافق خبر الشارع الحكيم =أقر بهذا المعنى، وإن أراد بها معنى يخالف ذلك =أنكره.

ويبقى بعد ذلك النظر في التعبير عن المعاني الصحيحة المرادة بتلك الألفاظ؛ **فإن كان في هذه الألفاظ اشتباه أو إجمال =فالواجب أن يعبَّر بغيرها**، أو يبيَّن المراد الصحيح بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي؛ لأن استعمال المجملات والمبهمات في هذا المقام من أسباب وقوع الفرقة والاختلاف بين الأمة، وهو مما نُهينا عنه؛ فإن كثيرًا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة

مبتدعة ومعان مشتبهة؛ حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سُئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلًا عن أن يعرف دليله، ومع ذلك فلا يلزم أن من خالفه يكون مخطئًا؛ بل قد يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيبًا من وجه وهذا مصيبًا من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث.

وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء!

وكثيرًا ما تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يُعرَف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إما لفظًا وإما معنى، فحينئذ يصير من جهل ذلك في نوع جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك وتقع البدع ويتفرق الدين شيعًا؛ فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة؛ كما قال الإمام مالك: "إذا قَلَّ العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء". ولهذا شُبهت الفتن بقطع الليل المظلم.

فالواجب إذًا أن تفسر الألفاظ المجملة بالألفاظ المفسرة المبينة، وكل لفظ يحتمل حقًّا وباطلًا فلا يطلق إلا مبينًا به المراد الحق دون الباطل.

وإن من البلايا العظيمة في هذا الزمان أن يتكلم بعض أهل العلم في خطاب العامة بكلام مجمل يستعمله السياسيون والمبطلون ويريدون به كثيرًا معانيَ فيها مضادة للشرع ومحادة لله ورسوله، ثم يقع بعض المتشرعة في استعمال هذه الألفاظ وهم يريدون بها المعاني الصحيحة التي تحتملها، فيبقى العامة في اختلاط والتباس، وتبقى مرادات الله ورسوله غير واضحة، وتبقى هذه الألفاظ تُكئة للمبطلين أن يستعملوها في معانيها الباطلة ليضلوا الناس بغير علم.

قال ابن القيم: "إن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبهة محتملة تحتمل معانيَ متعددة، ويكون ما فيها من الاشتباه في المعنى والإجمال في اللفظ يوجب تناولها بحق وباطل؛ فبما فيها من الحق يَقبل من لم يُحِط بها علمًا ما فيها من الباطل؛ لأجل الاشتباه والالتباس، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوصَ الأنبياء، وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلها؛ فإن البدعة لو كانت باطلًا محضًا لما قُبِلت، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها، ولو كانت حقًّا محضًا لم تكن بدعة وكانت موافقة للسنة، ولكنها تشتمل على حق وباطل ويلتبس

فيها الحق بالباطل كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾؛ فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانِه، ولبسُه به: خلطه به، حتى يلتبس أحدهما بالآخر. ومنه التلبيس وهو: التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره؛ فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان؛ معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح، ومرادُه الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ. وأما الاشتباه في المعنى؛ فيكون له وجهان، هو حق من أحدهما وباطل من الآخر، فيوهم إرادةَ الوجه الصحيح، ويكون مراده الباطل؛ فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، ولا سيما إذا صادفت أذهانًا مخبطة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟! فسل مثبت القلوب أن يثبت قلبك على دينه وأن لا يوقعك في هذه الظلمات". [الصواعق المرسلة (٩٢٦/٣)]

ومن بديع كلام أهل العلم في ذلك ما قاله ابن القيم أيضًا: "إن هؤلاء في معارضتهم للوحي سلكوا طريقًا سحروا بها عقول ضعفاء الناس وبصائرهم، فشبهت عليهم وخيل إليهم أنها حق، فأصابهم في

ذلك مثل ما أصاب السحرة حين عارضوا عصى موسى بما خيل إلى أبصار الناظرين أنه حق؛ فإن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة تحتها معان مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وأدخلوا فيها من المعاني غير المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفا طويلًا بنوا بعضه على بعض، ففكروا فيه وقدروا وأطالوا التفكير والتقدير، ثم عظَّموا قولهم وهوَّلوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضًا لما فيه من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وسَمِع منهم ما تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم =قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، وهذا أمر قد صقلته الأذهان على تطاول الأزمان، وتلقته العقول بالقبول والتسليم، وفزعت إليه عند التخاصم والتحاكم؛ فيبقى ما في النفوس من الحمية والأنفة يحملها على تسليم تلك الأمور قبل تحقيقها، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل، فيأخذها مسلَّمة، فإذا جاءت لوازمُها لم يجد بدًّا من التزامها، ويرى أن التزام تلك اللوازم أهون عليه من القدح في تلك القواعد وإبطالها؛ فهذا أصل ضلال من ضل من أهل النظر والبحث في المعقولات، وأما الأعمى المقلد فليس معه أكثر من: هكذا قال العقلاء!". [الصواعق المرسلة (٣/٩٩٥)]

"فمن طلب الأمور العلية -كما قال ابن تيمية- من غير الطرق النبوية =قادته قسرًا إلى المناهج الفلسفية، ومن طلب أمرا عاليًا من غير طريقه لم يحصل إلا على ضده. فالواجب على من يريد كشف ضلال هؤلاء وأمثالهم أن لا يوافق على لفظ مجمل حتى يتبين معناه ويعرف مقصوده، فيكون الكلام في معنى معقول يتوارد النفي والإثبات فيه على محل واحد، لا في لفظ مجمل مشتبه المعنى، وهذا نافع في الشرع والعقل والدين والدنيا". [الصواعق المرسلة (٣/٩٩٦)]

وهو باب عظيم الخطر إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب، وخلصه من ورطات تورط فيها أكثر الطوائف.

وحينئذ فالمتعين على أهل العلم أن يجعلوا ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلًا في جميع هذه الأمور، ثم يَرُدوا ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويبينوا ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتُقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترُدّ.

وأما الألفاظ المجملة فالكلام فيها بالنفي والإثبات دون الاستفصال =يوقع في الجهل والضلال والفتن والخبال والقيل؛ لأن في استعمال العبارات المجملة المتشابهة المشتملة علي حق وباطل =إثباتُ حق وباطل، وفي نفيها نفيُ حق وباطل، ولذلك يُمنع من كلا الإطلاقين؛ بخلاف النصوص الإلهية؛ فإنها فرقان فرق الله بها بين

الحق والباطل؛ ولهذا كان سلف الأمة وأئمتُها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه، فيثبتون ما أثبته الله ورسوله وينفون ما نفاه الله ورسوله، ويمنعون من إطلاق العبارات المحدثة المجملة المتشابهة نفيًا وإثباتًا، ولا يطلقون اللفظ ولا ينفونه إلا بعد الاستفسار والتفصيل؛ فإذا تبين المعني أُثبت حقه ونُفي باطله، بخلاف كلام الله ورسوله فإنه حق يجب قبوله وإن لم يُفهم معناه، وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يُفهم معناه.

وانظر –رحمك الله– إلى تلك العبارات المجملة الموهمة التي صار كثير من أهل العلم يعبرون بها في بلادنا تأثرًا بجو الثورات ومطالبات الطوائف المنحرفة من العلمانيين والليبراليين وأشباههم، واستثارة لعواطف العامة؛ من مثل: الحريات، والمواطنة، والمساواة، وحق التظاهر والاعتصام، وحق التعبير، وحق المعارضة، وأشباه هذه العبارات المجملة المتشابهة التي نجزم أن مراد أعداء الدين بها مضاد لشريعة الله، ومع ذلك يقع كثير من الدعاة والمتشرعة في استعمالها من غير نص صريح على المراد الصحيح منها، حتى استقر في نفوس كثير من العامة صحةُ استعمالها، ورأوا ذلك موافقًا للشرع، ولو استمر الوضع

كذلك=فسينشأ الناشئ بعد ذلك على إلف هذه الألفاظ بمعانيها الشائعة ويراها هي الحقَّ الذي تُردُّ به النصوص الشرعية والقواعد المرعية ويُتهم دعاة الحق –إن خالفوا تلك الأهواء– بالتخلف والرجعية!

قال ابن تيمية: "وقد تقدم التنبيه على منشأ الضلال في هذا السؤال وأمثاله، وما في ذلك من العبارات المتشابهات المجملات المبتدعات سواء كان المحدَث هو اللفظ ودلالته، أو كان المحدَث هو استعمال ذلك اللفظ في ذلك المعني ... وأنه إذا مُنع إطلاق هذه المجملات المحدَثات في النفي والإثبات ووقع الاستفسار والتفصيل =تبين سواء السبيل. وبذلك يتبين أن الشارع عليه الصلاة والسلام نص على كل ما يعصم من المهالك نصًّا قاطعًا للعذر، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ وقال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ

خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾

وقال أبو ذر رضي الله عنه: "لقد تُوفي رسول الله صلي الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا". وقال صلى الله عليه وسلم: **"تركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك"**. وقال: **"ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه خيرًا لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه شرًّا لهم"**.

وهذه الجملة يعلم تفصيلها بالبحث والنظر والتتبع والاستقراء والطلب لعلم هذه المسائل في الكتاب والسنة؛ فمن طلب ذلك وجد في الكتاب والسنة من النصوص القاطعة للعذر في هذه المسائل ما فيه غاية الهدى والبيان والشفاء.

وذلك يكون بشيئين: أحدهما: معرفة معاني الكتاب والسنة. والثاني: معرفة معاني الألفاظ التي ينطق بها هؤلاء المختلفون، حتى يحسن أن يطبق بين معاني التنزيل ومعاني أهل الخوض في أصول الدين فحينئذ يتبين له أن الكتاب حاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه". [درء التعارض (١/٣٧)]

"ولهذا يجب على من يريد كشف ضلال هؤلاء وأمثالهم: أن يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين معناه ويعرف مقصوده ويكون الكلام في المعاني العقلية المبينة لا في معان مشتبهة بألفاظ مجملة...فعلينا أن نؤمن بما قاله الله ورسوله، فكل ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله فعلينا أن نصدق به وإن لم نفهم معناه؛ لأنا قد علمنا أنه الصادق المصدوق الذي لا يقول على الله إلا الحق. وما تنازع فيه الناس من الألفاظ المجملة فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء لا في النفي ولا في الإثبات حتى يتبين له معناه، فإن كان المتكلم بذلك أراد معنى صحيحًا موافقًا لقول المعصوم =كان ما أراده حقًّا، وإن كان أراد به معنى مخالفًا لقول المعصوم =كان ما أراده باطلًا. ويبقى النظر في إطلاق ذلك اللفظ ونفيه وهي مسألة مهمة، **فقد يكون المعنى صحيحًا ويُمنع من إطلاق اللفظ لما فيه من مفسدة، وقد يكون اللفظ مشروعًا**

ولكن المعنى الذي أراده المتكلم باطل؛ كما قال علي رضي الله عنه لمن قال من الخوارج المارقين: "لا حكم إلا لله": هذه كلمة حق أريد بها باطل"! [درء التعارض (١/٢٩٦)]

وأما إطلاق الألفاظ غير واضحة المعاني في مقام التبليغ والبيان فهو حال أهل البدع؛ كما سبق.

قال ابن تيمية في بيان حال الفرقة الناجية: "فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول؛ بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه، وما تنازع فيه الناس من مسائل ... يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف؛ فما كان من معانيها موافقًا للكتاب والسنة أثبتوه؛ وما كان منها مخالفًا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس؛ فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم. وجماع الشر: الجهل والظلم".

ولقد راجت اصطلاحات كثيرة بين الناس اليوم، وأُريد للشريعة أن تحمل على وَفقها، بل أن تُجعل معانيها هي مقاصد الشريعة، ولما استعمل المتشرعة تلك الاصطلاحات والألفاظ المجملة

تفرق الناس؛ فخسروا هم كثيرًا من أتباعهم المخلصين، وفوق ذلك –ولأنهم لم يحسنوا مجاراة المبطلين وتأثروا بكثير من الباطل ووقعوا في تناقضات– خسروا كثيرًا من العامة، وكان بعض المتشرعة يقولون: لا نريد أن نفرق الناس لو استعملنا المصطلحات الشرعية المحضة في واقع غير مهيأ لذلك، فوقعوا في عين ما هربوا منه، ولكن وقعت تلك الفرقة على غير نور وبصيرة وهدى من الله، وفي كل مرة وكل جولة تتفتت الوحدة وتتشرذم الأمة ويُدّعى مع ذلك الحفاظ على الثوابت والسعي إلى إعادة الهوية! ثم يُعامَل كثير من المعارضين لهؤلاء المتشرعة على أنهم معارضون للشريعة، مع أن الدعوة لم تكن للشريعة المحضة، بل هي لأمور مختلطة وألفاظ محدثة ملتبسة لا يصلح أن تكون معقد ولاء وبراء، ولا سبب تفريق بين الناس، والمؤسف أن تدغدغ عواطف العامة من المتدينين بأمور لا تحققها تلك الدعاوى، ونظل في حالة استقطاب وتفريق أدت بنا إلى ما نعيشه اليوم من صراع وفرقة وتربص بالتيار الإسلامي وسوء ظن به وتكذيب له.

قال ابن تيمية: "وليس لأحد أن يمتحن الناس بلفظ مجمل ابتدعه هو من غير بيان لمعناه". [الفتاوي الكبرى (٣٤٦/٦)]

وكذلك تفريق الناس بأسماء أحزاب وطوائف وولاءات على غير الإسلام والسنة =من التفريق المنهي عنه المتبرَّأ من فاعله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والله تعالى قد سمانا في القرآن المسلمين المؤمنين عبادَ الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان؛ بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي واليماني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري =فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها؛ بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان". [مجموع الفتاوي (٤١٥/٣)]

إن الواجب على الدعاة والمصلحين أن يسلكوا مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس وفي جمعهم، **فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلن حقيقة دعوته للناس من أول يوم، وهكذا أنبياء الله ورسله، من الدعوة إلى توحيد الله واتباع رسوله**

والبراءة من الشرك وأهله، ولم يقل أحد منهم للناس: إننا جئنا بإصلاح الأوضاع الاجتماعية ولا بنهضة ولا بتحقيق رفاه، وذلك وإن كان قد يتحقق =فليس هو مما يُقصد بالأصالة بل بعضه لا يقصد حتى بالتَّبَع، فجذبُ العامة إلى الشريعة بما لم تأتِ الشريعة لتحقيقه ولا يملك المتشرعة مفاتحه =ضربٌ من اللبس والخيانة وإيقاع الناس في سوء الظن بالشرع وحمَلته، والتكذيب بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين بنصرتهم وعزتهم.

وإن من المؤسف أن كثيرًا من المعاني الفاسدة والألفاظ المتشابهة كان أهل العلم والدعاة ينبهون عليها من قبل في ظل الأنظمة الفاسدة السابقة رغم ما كانوا يعانونه من ظلم واضطهاد وفتنة ضراء، ثم اليوم صاروا يستعملون هذه الألفاظ، وخفَّت حدة إنكارهم على كثير من معانيها، وفي ذلك فتنة للعامة ولمن كانوا يناوؤنهم على حد سواء!

إن وظيفة العالم هي البيان الواضح والبلاغ المبين، وليس التسويغ والتماس الحيل والاحتمالات البعيدة لتمرير ما تريده سلطة كائنة ما كانت.

وقد يبقى للساسة بعض العذر في استعمال بعض هذه المصطلحات المحتملة إن اقتضت الضرورة الشرعية ذلك، ولكن بيان أهل العلم لا علاقة له بهذه الضرورة، ولا يرفع الواجبَ عنهم إنكار خفي لا يسمع، أو بيان ليس إلا ركزًا.

"لقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في يد العرب، إنما هي في أيدي الفرس والروم، فبلاد الشام كلها في الشمال خاضعة لحضارة الروم وحكمها، وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة لحضارة الفرس وحكمها، وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحاري القاحلة التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك!

وقد كان يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب التي أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات، فيوجه دعوته وجهة قومية لاستخلاص أرض العرب المغتصبة من الإمبراطوريات الأخرى وإعلاء راية العروبة، وربما لو دعا إلى ذلك كانت ستستجيب له معظم قبائل العرب، بدلًا من أن يعاني ثلاثة عشر عامًا في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة حتى إذا استجابت له العرب وولته فيها القيادة والسيادة وحاربت تحت لوائه ودانت له بالسمع والطاعة =استخدم ذلك كله في إقرار عقيدة

التوحيد التي بُعث بها لتعبيد الناس لسلطان ربهم بعد حقق لهم مآربهم الدنيوية.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك، بل دعا إلى كلمة التوحيد وإلى تحقيقه في الناس، وتحمل الأذى في سبيل ذلك، **وانقسم الناس بدعوته الواضحة إلى شقي وسعيد وكافر ومؤمن؛** فالانقسام والاختلاف حيث كان واقعًا لا محالة وقدرًا مقدورًا لا سبيل إلى رفعه ولا مفر منه =فليكن على محجة واضحة وسبيل قويم.

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد بُعث بهذا الدين وإن العرب بعامة في أسوأ حالة اجتماعية، من الفرقة والنزاعات واحتكار الثروات والجاه، وغياب العدالة في توزيع الأموال عامة وخاصة، وظلم للنساء وللرقيق، وقد كان يمكن أن يرفعها النبي صلى الله عليه وسلم راية اجتماعية، وأن يثيرها حربًا على طبقة الأشراف والسادة، وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع الجائرة، وإعادة توزيع الثروات وتحقيق العدالة الاجتماعية وكرامة العيش والحرية، وكان سيتبعه حينئذ فئام كثيرة من الناس ليقفوا في وجه طغيان المال والشرف والجاه، وتبقى القلة القليلة معارضة له، بدلًا من أن يقف المجتمع كله في وجه **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** التي لم يقبلها في ذلك الوقت إلا القليل من الناس، حتى إذا استجابت له الكثرة

وتولى قيادها، وحقق لها مرادها، وغلَب بها القلةَ وقادها =استخدم مكانته السامقة يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبّدهم لسلطانه البشري.

ولكن كل ذلك لم يكن؛ بل كانت الدعوة واضحة جلية متمحضة في أن يكون الدين كله لله.

وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب شتى، حيث كان الظلم فاشيًا في المجتمع، تُعبر عنه حكمة الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ** يهدَّم ومن لا يَظلم الناس يُظلمِ

... وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية، ومن مفاخره كذلك، يعبر عن هذه الخصال الشعرُ الجاهلي بجملته...وكانت الدعارة في صور شتى من معالم هذا المجتمع الجاهلي المنحرف شأنه شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث...

وقد كان يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يعلنها دعوة إصلاحية، تتناول تقويم الأخلاق، وتطهيرَ المجتمع، وتزكيةَ النفوس، وكان لا محالة واجدًا نفوسًا طيبة يؤذيها هذا الدنس، وتأخذها النخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير.

ولو أنه صنع ذلك لكانت قد تبتعه جمهرة صالحة تتطهر أخلاقها وتزكو أرواحها، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها، بدلًا من أن تثير دعوة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) المعارضة القوية منذ أول الطريق.

ولكن شيئًا من ذلك لم يكن؛ لأن الله يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس متين من عقيدة تضع الموازين وتقرر القيم، كما تقرر السلطة التي تستند إليها هذه الموازين والقيم، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين، وأنه قبل تقرير هذه العقيدة وتحديد هذه السلطة تظل القيم كلها متأرجحة، وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك بلا ضابط ولا سلطان ولا جزاء.

فلما تقررت العقيدة بعد الجهاد الشاق والدعوة الواضحة وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة وعرف الناس ربهم وعبدوه وحده وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه =تحرروا من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء، وصنعت دعوة التوحيد بأهلها كل شيء صالح مما يقترحه المقترحون، وتطهرت الأرض من الرومان والفرس لا ليتقرر فيها سلطان العرب، ولكن ليتقرر فيها سلطان الله رب العالمين الذي له

الخلق والأمر، **فلم يزُل طاغوت غربي أو شرقي ليأتي طاغوت عربي، ولم يزل أشخاص نظام ليأتي آخرون يدورون في نفس الفلك وإن تغيرت بعض المظاهر التي لا تغير من الحقيقة شيئًا، بل تطهر المجتمع من الشرك والظلم الاجتماعي بجملته والأخلاق السافلة والعادات الباطلة**، وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ويسميها راية الإسلام، التي ليست شرقية ولا غربية، فلم يقرن إليها اسمًا آخر، وتطهرت القلوب والأخلاق، وزكت النفوس العليلة؛ فغدت في سعادة وسرور، ورضوان وحبور؛ لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر، ولأن الطمع في رضا الله وثوابه والخوف من غضبه وعقابه قد تمكن من النفوس، ويَزَع الله بعد ذلك بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وارتفعت البشرية في نظامها وأخلاقها وقيمها وحياتها كلها إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، ولم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.

لقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك، وكانوا قد وُعدوا

على إقامة هذا الدين وعدًا واحدًا لا يتعلق بشيء من هذه الدنيا، هو رضوان الله والفوز بجنته، فسواء قام الدين على أيديهم أو ماتوا وهم يسعون إلى إقامته ولما يقم؛ كل ذلك لا يؤثر شيئًا.

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا، ولما أن فرغت نفوسهم من حظوظها، ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض كائنًا ما كان، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم، ولما لم يَعُد في نفوسهم اعتزازٌ بمجد دنيوي، ولا بقومية ولا برهط، ولا بوطن ولا بأرض، لما أن علم الله منهم ذلك كلَّه علم أنهم قد أصبحوا أمناء على هذه الأمانة الكبرى التي خلق الله الخلق لأجلها، وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله فينفذوها، وعلى عدل الله فيقيموه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم، إنما السلطان لله والدين كله له.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء وترفع هذه الراية وحدها واضحة لا لبس فيها ولا غموض، يفهمها المخالف كالموافق، والعجمي كالعربي". [معالم في الطريق، باختصار، ص٢٣-٣٠]

ثم لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا طريق للصلاح والفلاح وسعادة الدارين إلا بتحقيق ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علمًا وعملًا، مع مراعاة أحوال المخاطبين وحسن دعوتهم، وعدم خلط الوسائل بالمقاصد، وتضييع الغايات استغراقًا في وسائلها.

والله سبحانه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]